

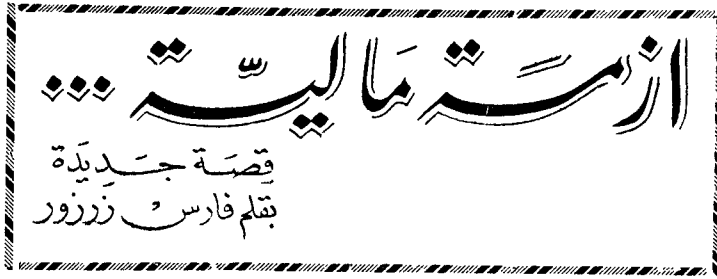
خيوط قميصي عن مكافحته . واحياناً عندما تسير الاقدام  
ببطء يسير الرأس بسرعة فاذا لم يجد شيئاً يفكر فيه  
خاف من شيء مجهول . وانا خفت في تلك اللحظة . خفت ان  
يفاجئني شخصان من وراء احدى الزوايا ويردياني قتيلاً بالرصاص  
ثم يفر الى مكان بعيد .

يا للسخف . ! من انا يا ترى . ! وعندما اقتنعت اني لا  
شيء تصورت رجلاً مسناً ينحني امامي .

– سيدي هذه البناية الكبيرة مات صاحبها اليوم واوصي  
بها لاول من يمر بهذا الشارع وانت الشخص الوحيد الذي تستحقها .  
– حسناً ! هي لي حالاً وسريعاً ؟ غرفة دافئة وصندويشة  
نقانتى ...

وملأت خياشيمي رائحة توابل ذكية فاستفاقت امعالي  
وارسلت صرخات مكتومة وامتلأ في بلعاب مائع . . . وسئمت  
التجوال فقررت الذهاب الى السينما . لأن التدقيق في واجهات  
المخازن وفي وجوه الناس بصورة خاصة لا يبعث على غير المقت  
والكراهية والكدر . بل

يزيدها اضعافاً مضاعفة في  
نفس من يشعر بها على الدوام .  
ووقفت امام شباك  
التذاكر وانا ازن ثمن البطاقة  
بميزان شديد الحساسية يفتقر  
اليه البخلاء والصائغون على



السواء . وقررت اخيراً ان اغامر لولا ان وقعت عيناى فوراً  
ودون ان اتلفت حوالي على احد الاشخاص الذين كنت اعرفهم  
في عهود الدراسة . وكان يتأبط ذراع سيدة فائقة الروعة او  
هذا ما خيله لي جهلي الشديد لهذا الجنس الغريب من الانسان .  
وكدت اتوارى عن انظارهما لولا ان امسكني بغتة وصافحني  
بجرارة مدهشة .

– مرحباً ايها الصديق . . . كيف حالك . . . ? زوجتي . . .  
صديقي زكريا . . .

ولو كان وحيداً لأجبت ببعض الكلمات ، غير ان قيافتي  
المخجلة وتلك السيدة جعلتا لساني ينصهر بين فكي ، فلا ابدي  
اية حركة . فأستعنت برأسي ورددت تحيته بايماء ذليلة محزنة .  
وكان صديقي كريماً وشريفاً بل ونيبلاً للغاية . انني لا اطلق  
عليه هذه الصفات جميعاً لانني لا املكها او لاني لا ادفع لها

لم اكن في ذلك الحين فقيراً جداً كما انا الآن . الا ان ثمن  
بطاقة السينما كان يؤذني على كل حال . او بمعنى اصح كان يؤذي  
جيبى . ولا اكون مخطئاً اذا قلت بان جيبى اصبح جزءاً مني لا  
يتجزأ بعد ان جمعنا معاً نحن واحدة هي البؤس والآمال  
الضائعة والفراغ . ولا شك ان هذه الحنة الاخيرة كانت اسوأهن  
على الاطلاق . وقد كنت في ذلك الحين اجروء على التفكير  
بكثير من الاشياء بل بشراء بعضها احياناً . فقد كنت افكر  
بالعرف الدافئة وبمحتويات الواجهات الزجاجية وبالسيارات  
وبالنساء ايضاً . . . ومن البديهي ان تفكيري في هذا الصنف  
الاخير كان جراً ليس لها حد . غير ان ما كنت استطيع  
شراؤه من هذه البضائع جميعاً هي السيارات والجراند واقداح  
قزمية من عرق مجهول الهوية . اما الذهاب الى السينما فكان  
يحتاج الى شجاعة فائقة .

والآن وفي هذه اللحظة بالذات فأنى اربت على كنف جيبى  
فاسمع صدى فراغه كصدى عويل في مقبرة ، والتفت بمنة

ويسرة فأجد ان آخر سيمكاه  
قد تبخرت من حياتي دون  
ان تترك رماداً . من اجل  
هذا اشرع في كتابة هذه  
القصة لاسلي نفسي واسلي  
الناس ، وربما لاحزهم ايضاً .  
وخاصة من يشعر قلبه منهم

بذلك الفراغ الخفيف الذي هو ارهب من العمل القاتل واشد  
قسوة من الاشغال الشاقة .

في ذلك اليوم ، فكرت جدياً بأن اذهب الى السينما ولم  
تكن هذه الفكرة حلماً من احلامي الكثيرة التي تتبدد قبل ان  
تلامسها الشمس ، بل كانت فكرة واقعية وعملية لأن جيبى  
كان يملك ثمن البطاقة .

كان الوقت مساء وكانت الشوارع مكتظة بالناس الذين  
يسرون باتجاهات مختلفة . وكنت قد اعتدت ان اسلك الطرق  
الحالية لأنها تشعرني بانى لست وحيداً في هذا العالم . فضلاً عن  
اني اجد فيها نفسي كنت التقى في بعض الاحايين بشاب يسير  
متلصصاً بالحاءط يشير بيديه ويحدث نفسه بصوت مسموع .  
غير اني في ذلك المساء ايقنت تمام اليقين انني مها تجولت فلن  
اعثر على نتيجة ما ، باستثناء ان الجو كان جارح البرودة عجزت

شخصاً آخر . ممن تحجلين يا سيدتي ؟ مني ؟ مني ؟ مني ؟ انظري  
اذن .. انني لا استحق ذلك وانا خجول اكثر منك لأسباب  
اولها . وآخرها انني شخص تافه . استودعك الله ايها الصديق .  
ومددت يدي دون ان اقول شيئاً .

فصاح بدّهشة :

— الى اين ؟

— الى هنا .. الى هنا .

— ولكننا قطعنا ثلاث بطاقات .

والآن انا اجلس على كرسي فخمي الى جوار السيدة والى  
يسارها يجلس الزوج المجنون . لقد دفع لي ثمن البطاقة . ايها  
الصديق : لقد اطلقت عليك جميع الصفات الحميدة قبل ان  
تدفع ثمن قريشاً واحداً ، اما الآن فقد اشتريتي ، اشتريتي على  
علائي بثمان فادح . حدث نفسك .. فكر .. ألسنت مخدوعاً  
هل نسيت ؟ انني سارق .. سارق !

واصطدمت قدم السيدة بقدمي فانكشمت على نفسي  
وتكورت ، تمتد لو اذوب ، لو اضيخ ، لو اتشقق . وأباد .  
كانت ثلاث اصابع من قدمها شبه العارية تبرز من رأس  
الحذاء . اصابع بيضاء طرية طيبة . ان زاوية ما في رأسي  
بدأت تحرك اجنحتها ، زاوية مهملة ضئيلة مية ، ورغم ضجيج  
الزوايا الاخرى واصطخاها فرشت هذه الزاوية اجنحتها وبدأت  
ترحف كصوص خرج لتوه من البيضة !

وتمتد رغم ضآلتي ورخصي ان اعري قدميها واقبلها  
واضمها الى صدري بعنف ، بعنف شديد ، وارتعشت وخفت  
ان تنظر الى وجهي ، فتقرأ ما افكر فيه . وهبت نسمة من  
المواء فشعرت بالبرودة تلسع جيني : لا شك انه يتحلب عرقاً  
انها افكار مخيفة . ومال إليّ الزوج . آه ! ماذا سيحدث ؟  
هس بصوت مسموع :

— ماذا تعمل الآن ؟

— لا اعلم شيئاً

— انا معلم مدرسة .

وأرجع ظهره وأسنده الى الكرسي ، وفكر قليلاً بأسي  
ظاهر . لا شك انه تادم على دفع ثمن البطاقة !

وتحدث مع زوجته قليلاً ثم صمت ، وهزت هي رأسها  
ونظرت اليّ بلطف فسقطت عيناها وافكارها الى الارض  
واستقرت جميعها على قدميها الطيبتين . كالنظائر . النظائر ؟

ثمناً ، بل لانه فعلاً كان في غاية النبل ، فقد صافحني بجملة  
واخلاص صافيين دون ان المح في عينيه انه تذكر عني شيئاً .  
بل انني كلما تصورت انه لم يحاول ان يفكر بتلك الحادثة  
اشعر برأسي ينحني فأكاد اسجد له .. ان رفاقي جميعاً يذكرون  
اني سارق . وانا اذكر ذلك ايضاً . وانا لست سارقاً بالمعنى  
المفهوم . اي انني لم اسرق ذلك الكتاب بل الكتاب هو الذي  
فعل ذلك .. تمهلوا قليلاً ايها الاعزاء ! ان الكتاب لا يسرق ..  
غير ان هذا الكتاب بالذات سرق نفسه ، فقد جاء الى درجي  
بطريقة عجيبة فاحتفظت به . هذا كل شيء ! وقد كان هذا  
الكتاب هو سبب طردني من المدرسة . اذ لم يشأ احد من  
الاساتذة أو الطلاب ان يفهم بانني لست سارقاً وانما الكتاب  
هو الذي جاء الى درجي ، بطريقة خفية . حتى المدير نفسه ..  
المدير الذي هو سيد الجميع استدعاني اليه وصب عليّ جام احتقاره  
بالفاظ شديدة القسوة .

— استدع اباك بسرعة يا لص .

— ليس لي اب .

— اذن اجث عن اب يملك الامانة .

هذا كل شيء ايها الاعزاء ! والآن اجدني بسببه اتيه في  
هذه الدنيا دونما عمل ، غير اني اقسم لكم بري انني حتى الآن  
لم اسرق شيئاً على الاطلاق . إنما وجدت الكتاب في درجي  
يبتسم لي بصوره الزاهية فاحتفظت به . أفهموني بربكم ماذا  
افعل غير ذلك ؟ هل اطرده ؟ ومن يدري ان له صاحباً ؟ ان  
احداً لم يسأل عنه وحق السموات . وفعلاً فان حاجتي اليه هي  
التي أقنعتني ولقنتني انه ما دام ليس له اهل وما دام جاء الى  
درجك من تلقاء نفسه فلا بأس في ان تحتفظ به ، على شرط ان  
لا تريبه احداً . هل تسمون هذه سرقة ايها الناس ؟ اذن افنعوهم  
بربكم .. اقنعوا اولئك الذين لا يفهمون !

آه لقد شططت . لقد ضللت الطريق . كان يجدر بي ان  
امسك ببوصلة كي اسير مباشرة الى الهدف كما يقول العسكريون  
والقصاصون ايضاً . تباً لك ايها القلم هل انت جائع ايضاً ؟  
حسناً .. وهذه السيدة التي تتأبط ذراع صديقي امرأة فتانة  
الصورة رائعة التمثال ، ولكنها تبدو كمن تحجل من جمالها فهي  
تبتسم ببراءة وتحمر وجنتاها وتطرق بالرأس .

— تشرفنا .

ايتها السيدة انظري إليّ قليلاً ، انا من يقدم اليك وليس

اسرق نظرات طويلة ، دون ان احرك رأسي ، الى رأسيهما المتلاصقين . لقد تطور حديثهما ودخل في مرحلة جديدة من النقاش ، ووصلت الى أذني العبارة فاه بها هو بقوة :

- ماذا نفعل بها ؟  
- هس ! سيمع .

واخذ وجيب قلبي يطغى على كل شيء حتى خلت ان صدري يبرز ويتوارى تبعاً لحفقاته ، ودوى في أذنيّ طنين طويل هائل ، واعمتني حالتي الذاهلة عن كل ما حولي وكان رأسي مسمراً باتجاه واحد ، ولكن عيني لا تريان شيئاً ، وهذه الرؤوس المصطفة على أنساق مستقيمة لم تكن توحى إلي بشيء . على الاطلاق ، بل كان يخيل إليّ انه لا يوجد في هذا العالم كاه غير رأسي وحده يتضاحم ببطء الى درجة يكاد معها ان يتمزق . اطلقت الانوار وبدأت الصور تتلاحق على الشاشة . ان هناك اموراً رهيبية وخطيرة يحثانها بحمد واهتمام ، انها لا ينكران بالشاشة ، لماذا جاء اذن ؟ ربما خلقت لها مشاكل معقدة مستعصية الحل ! هل اضايقتها يا ترى ؟ وتحركت قليلاً تمهيداً لهرب نهائي فغيراً من وضعيتها ، لقد أحسا بانني اهرب وسمعته يقول كمن نفذ صبره :

- 'انني لا استطيع ان أراك شاحبة الوجه ، لا استطيع ! أفهمت ؟ ! انها اشياء ضرورية ، صدقيني اننا لسنا بحاجة الى لحمة الغد .

- ماذا نأكل اذن ؟

- مجدرة ! مجدرة بالزيت مع مخلل !

- وهل نسيت وصايا الطبيب ؟

- اسمعي اذن : لا بد من الاستغناء عن حاجة بهذا الثمن ، ولكن ! هه . . . ربما نستطيع توفيره من سهرة يوم الجمعة القادمة !

• - لقد حسبنا لها ليوتين وعشرين قرشاً !

- سنذهب الى السيئنا فنوفر سبعين قرشاً !

- ولكننا وعدنا سعيد ونديده .

- انك تحيريني ايها المرأة ! لن اذهب معكم .

- لا يمكن ذلك !

يا للمسكينين انها لا يلتفتان الى الشاشة .

- هل اضايقت ايها العزيز ؟

والفتت اليه :

- آه لا ، اخشى ان اكون انا !

يظهر انني جائع ! ومن سخافة الجائع انه تراود رأسه أطيب المآكل . لا بأس ، ماذا يخسر ما دام لا يدفع لها ثمناً ؟ لماذا يفكر بالاشياء الرخيصة ما دامت جميعها مفقودة على السواء ؟ فلأفكر اذن ! هذا الحذاء الابيض الناعم لا بد ان له رائحة ايضاً ! كانت يداي مشلولتين في حجري ، ساكنتين مبتتين ، ورأسي وحده يغلي كالمرجل . ان الجبناء والفقراء والحجوان يسرون وملا نحو الجنون لانهم يكتبون غرائزهم ويشغلون افكارهم ليلاً نهاراً على الدوام . ولكن ماذا لو كانت هذه السيدة تجربني ؟

والفتت إليّ ..

- هل اضايقتك ؟ ..

وابتسمت .

- لا ، أبدأ .. بتاتاً ..

- اراك تتامل !

- لا ، ابدأ ، ابدأ ..

انه من الصعب جداً ، بل من المستحيل ان احتمل الجلوس لحظة واحدة اخرى . يجب ان انسحب ، ان اخفي من هذا العالم . ان هذه السيدة تقرأ افكاري وتحدث زوجها ايضاً بل ربما سمعاني يتحدث عن الاقدام العارية !

ها هو الرجل يستسلم الى تفكير عميق : انه يبوء محاضرة اخلاقية . سيحدثني الآن بل ربما سيصيح امام الناس كلهم . انظروا ايها السادة هذا الخائن الغادر . لقد ..

ومال على زوجته وأخذ يتحدثان : الآن يجب ان اهرب . ولكن كيف انص ؟ سوف يرياني . ستقول لي بدهشة الى أين ؟ وسيربكني صوتها الخنون . وسوف تراني صفوف طويلة من الناس ؛ هذه الاعين المصطفة ورأي كلها تنفوس بي . اني اشعر بها تزحف على ظهري ، انها عيون محرقة وهم جميعاً يعرفون من انا ! ستطفأ الانوار الآن . لقد قرع الجرس . لا يزالان يتساران . إنها غارقان في حديث طويل ، لا شك انها يتحدثان عني ، ان ذلك يحطمني ، يشل اعزائي . وسمعته تقول له بصوت مسموع :

- وكيف نستطيع ان نستغني عن العشاء فضلاً عن اننا لم نتعدّ البارحة ؟

وأدنى وجهه من وجهها ، وقال لها شيئاً يظهر انه لم يكن متنعماً لانها هزت رأسها سلباً ولم تجب . كنت استرق او

- لا ، لا والله .

ومال على زوجته وحدثها باقتضاب مقدار دقيقتين .  
فتحنجت ولم تجب واستدارا نحو الشاشة .

ومال عليّ مرة ثانية :

- كنا نبحث قضية سأحدثك عنها .

المد الله ليس لي دخل في الموضوع ، إذن .

والتفتت هي إليّ وتأملتني بنظرات أقل طراوة من  
سابقاتها . لا شك ان الظلام يوحي بهذه الجراءة ، سألتني بصوت  
خافت :

- ماذا حدث حتى الآن ؟

- هذا الجندي الصغير أتريه ؟ قطعت رجله في الحرب وعاد

الى بيته فوجده مهتماً وهو الآن يبحث عن زوجته .

- ولماذا يطارد هذه الشحاذة ؟

- انه يظنها زوجته !

- مسكين .

والآن بعد ان انتهى كل شيء وأشرفت على نهاية القصة ،  
ماذا اقول ؟

صدقوني ايها الناس انني اتمنى لو ارمي بنفسي في النهر وفي  
مكان عميق .. عميق .. عمق الهوة التي أتردى فيها على رأسي  
غير انه يكفي ان اقول بانني مخلوق صنع من حثالة الطين ..  
وانني أحسّ بذلك كلما تصورت تلك المرأة المسكينة التي عريت  
أقدامها ، تظل مفتوحة العينين في فراشها وسط الظلام ساعة  
كاملة حتى تحين ساعة النوم .

هل فهمتم ما هي القضية ايها الانسانيون ؟ ان صديقي أراد  
ان يعوض ثمن بطاقتي ، فلم يجد غير اطفاء النور كل يوم قبل  
النوم بساعة كاملة على الاقل .

فارس زوزور

دمشق